المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة أم القرى
مكة المكرمة

بحوث
المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين

المنعقد في مكة المكرمة في المدة
٥ - ٧ شعبان ١٤١٩ هـ

الجزء الثالث

١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م

٩٠٠٠٠٢٧-٧

صورة البطل في « أمجاد الرياض »
دراســة بلاغيــة

إعـداد الدكتور

عوض بن معيوض بن زويّد الجميعــي

قسم البلاغـة والنقد / جامعة أم القرى

صورة البطل في «أمجاد الرياض»
دراسة بلاغية

د. عوض بن معيوض بن زويد الجميعي

قسم البلاغة والنقد - كلية اللغة العربية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

ملخص البحث:

تسير الحركة الأدبية النقدية المعاصرة في اتجاه سريع وحثيث نحو الإمساك بتلابيب النص؛ بغية الوصول إلى منابع الأسرار الجماليَّة والفنيَّة القابعة في عالمه الخاص.

وقد تنوعت المحاولات، وتعدَّدت أشكالها وسبلها، لكنها جميعاً تكاد لاتختلف على أنَّ لغة النص هي المحور الأساسي الذي ينبغي أن تدور حوله اهتمامات الباحثين. هذا التوجه الجديد في الدراسات الأدبية والنقديَّة المعاصرة دعم - بلا شك - مباحث البلاغة وعلومها وزاد من أهميَّتها؛ كأداة من أدوات الدرس الفني والجمالي، الأمر الذي دفع الدارسين إلى الاهتمام بأصول هذا العلم، ومحاولة تقديمه بطريقة تخدم الهدف المنشود في تحليل النصوص الأدبية، وذلك عن طريق استثمار العناصر اللُّغوية والجمالية المكونة له، ورصد حركة المعنى والعلاقات التي تربط بين أجزائه، دون الاكتفاء بتناول ظاهره.

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن صورة البطل في فيلاأمجاد الرياضلالا لمحمد العيد الخطراوي، في وقفة متأنِّية؛ تستقصي أبرز المعالم التي أشارت إليها هذه الإضمامة الشعرية بشأن التَّعبير عن شخصيه البطل الممدوح

الملك/ عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله، وطموحاته وشجاعته ووفائه ومروءته، وما حققه في مسيرة حياته من مجد ورفعة وسؤدد، فتتعرف على طاقات الإبداع، ومواطن الثراء فيها في نص أدبي كامل.

إن التتبع والكشف عن مثل هذه الظاهرة يصبح مطلباً عزيزاً، لا سيما حين يسهم في توسيع دائرة الدرس البلاغي، ويكشف عن خصائص تعبيرية تتجاوز في قيمتها الأدبية حدود ما تسمح به الوقفة السريعة.

كما أن تناولنا النص المدروس إنما ينبثق عن قناعتنا الراسخة أن من أولى مهام الدرس الأدبي والبلاغي الإسهام في تقريب النص إلى ذوق القارئ، ولفت انتباهه إلى مواطن الإبداع والأصالة والجمال في بناء المعاني وعلاقتها في نص أدبي بعينه، لربط جسر من التفاعل الفكري، والتواصل الوجداني، على نحو يجعل المتلقي يعيش الإحساس بفاعلية اللحظة الشعرية وأثرها.

إن تخصيص ذلك بدراسة مستقلّة لم يعرض له - حسب علمي - أحد، لذلك اتجهت هذه الدراسة إلى استظهار المعاني وطرق بنائها والعلاقات التي تربط بعضها ببعض؛ في التعبير عن فضائل البطل الممدوح في التجربة الشعريّة.

وإنها لفرصة ثمينة أن يتزامن إعداد هذه الورقة مع احتفالنا بالذكرى المئوية لتأسيس المملكة العربية السعودية على يد المغفور له الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود.

صورة البطل في «أمجاد الرياض»[1]

مقدمة:

حين نحاول استنباط ملامح وصور البطل في نصٍّ أدبي كهذا الذي بين أيدينا، ونعمد إلى استنطاق القوى والقدرات والطاقات الكامنة في النص نفسه؛ من حيث هي وحدات لغوية مجردة تتظافر في علاقاتها للتعبير عن المعنى الذي قصده الشاعر، وأوحى إليه بكتابة النص الشعري، فان هذا النمط من القراءة والتحليل يصبح أكثر إلحاحاً عندما يكون النَّص بحاجة إلى دراسة تسهم في زوال ما يعلق به من حواجز تحول دون فهم المتلقي لمعنى النص وعوالمه، الأمر الذي يفسح المجال للمتلقي في أن يتفاعل معه، ولا يقف عند فهمٍ معيَّن له. أي أن محاولة الكشف عن العلاقات اللغوية التي تقوم عليها عناصر النص من قارئ متمرس قد تزيد في فهمنا لمعنى يتضمنه النص قد لاتكشف عنه المعاني السطحية الظاهرة لمدلول الألفاظ إلى ما يتوارى خلفها من دلالات ورموز.

لقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى المعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، وهذا ما نصل إليه بغير واسطة. أما المعنى الذي لا نصل إليه إلا من خلال معنى آخر فهو عند عبد القاهر: معنى المعنى. يقول: "هاهنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى، ومعنى المعنى، نعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه

---

(١)" أمجاد الرياض" إضمامة شعرية لمحمد العيد الخطراوي في شخصية الملك عبد العزيز رحمه الله، نشرت ضمن بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين، ج ١، ص ص ٣٠٩ - ٣٤٨.

والدكتور محمد العيد الخطراوي شاعر وأديب وكاتب وباحث معاصر وله العديد من المؤلفات.

بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر..."[1].

ومع إيماننا بأن استنباط ملامح وصور البطل في "أمجاد الرياض" يتطلب عدداً من العوامل للبحث في بنائها اللغوي من خلال ما توحي به من معان عديدة، تتأثر بثقافة القارئ فإن أهم ما سندخل به إلى عالم النص النظرة إليه باعتباره كلاً واحداً لا يتجزأ، إذ إن العمل الأدبي حقيقة إنما هو عمل لغوي في جوهره، ولذا فإننا سننطلق إليه من لغته وسياقه دون أن نفرض عليه مالا يتلاءم معه.

تقوم هذه الدراسة على تحليل تراكيب النص، سواء أكان هذا التحليل في إطار بناء الجملة، أم في إطار بناء المعاني بدخول دراسة الصور البيانية، وألوان البديع، مع نظم الكلام وتأليفه، لأن كل المكونات البلاغية في القصيدة داخلة في الكشف عن ملامح البطل وعن السمات التي تحدد شخصيته وفق ماقصد إليه الشاعر.

وسبيلي في هذا تناول أدق المكونات البلاغية في "أمجاد الرياض"، والإنصات بكل دقّة إلى ما تنطقه تلك المكونات وعلاقتها من أسرار، ورموز، ودلالات بلاغية تظافرت جميعاً من خلال سياق النص في بناء معانيه ومقاصده والبحث عن الأصل الواحد الذي تدور عليه وتجتمع عليه هذه المقاصد بحيث كان المعنى العام للقصيدة في حركته كالحلقة التي يلتقي طرفاها.

ولهذا فقد جاءت هذه الدراسة ثمرة تأمل لعلاقات الجمل بعضها ببعض، كما جاءت ثمرة لتأمل ما يدخل في بناء الجملة من تنكير وتعريف، وحذف

---

(٢) دلائل الاعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، ط ٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص ٢٦٣.

وذكر، وإضمار وتقديم وتأخير، وإخبار بالاسم أو بالفعل، والتعبير بالإنشاء أو الخبر، وتناول التكرار وأسراره، والقصر وطرقه، والفصل والوصل وحروفه، ونوع الجملة من حيث هي: وصف أو حال أو توكيد أو بيان... الخ وطرائق الاختصار التي بنيت عليها معاني النص، والألفاظ الانتشارية التي اشتركت في إظهار المعني وبيانه، وصور البديع والبيان التي تساعد في تفسير حركة المعنى وفي ضم النظير إلى نظيره.

الشجاعة مفتاح شخصية ابن سعود:

شغلت حياة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الكثير من الباحثين والدارسين والكتاب والشعراء والمؤرخين. وكانت شخصية هذا البطل مفتاح ذلك كله، و "قمينة بكل هذا الاهتمام، وجوانب حياته المختلفة رحبة واسعة، تستوعب العديد من التأليف والبحوث"[1].

ومنذ الوهلة الأولى، ونحن نتابع حركة المعنى في الإضمامة الشعرية التي بين أيدينا فيلاأمجاد الرياضلالا، نجد أن النص يتوجه نحو تصوير موقف رجل شجاع ينشد العز والمجد والبطولة والسؤدد بطريق مشروع؛ للحق والعدل فيه جلجلة.

المكان هو ربوع الرياض، والحق يجلجل، لاهب الوفد، ينقضي انقضاض الأسد، ليحقق النصر والبطولة.

العز يرتفع شامخاً، ومقومات المروءة؛ من كرم، ووفاء، ورحمة، وتعقل، تفيض بالعطاء، حين نصب البطل نفسه لدعوة أمة العرب إلى الحق والكرامة.

---

(١) مقدمة " أمجاد الرياض" ضمن بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين ج١، ص ٣١١.

وهنا الجياد في حومة المجد، ويظهر الفتى الشجاع في درب الشهامة، ويطل الفجر، فجر الرياض، وتشرئب الجزيرة لهذا الشروق والضياء بعد أن كادت ظلمة الجهل والذل والهوان تغطي أرجاءها.

لا مناص لهذا البطل الهمام من ركوب الصعاب، فالمجد لا يدرك بالأماني، فلابدَّ من الكفاح، وإزالة ما علق بأذهان عرب الجزيرة من غبش، ولابد من تحريك بواعث العز في نفوسهم، فهم أهل لذلك، وجديرون به، لأنهم قد منحوا ذلك البطل المغوار حبهم واحترامهم مخلصاً مليء الوفاض.

وهنا تذلل الصعاب، وتميد الأهوال، حين يعلو صوت الحق، وتخرج الأسود من عرينها، ويطلع الفجر، ويشرق نور الشمس، لفتى هو سليل المجد، شبٌّ بين مهد السها ومهوى السماك، تاقت نفسه لمعالي الأمور، فابتسم له الزهر، وحالفه التوفيق، وعانقته الأسود.

اقرأ هذه الأبيات:

جلجل الحق في ربوع الرياض ... لاهب الوقد، عارم الانقضاض

وانتشى العز شامخاً يتغنى ... بالبطولات والندى الفياض

قام عبد العزيز للحق يدعو ... أمة العرب، فاهتفي يامواض

واصهلي ياجياد في حومة المجد ... وخوضي مع الفتى الخواض

وازدهي يا بنادق بأكف ... صممت أن يطل فجر الرياض

ذلت العرب في الجزيرة حتى ... بلغ الظلم ذروة الامتعاض

ما لعبد العزيز عن مركب الحرب ... مناص ولا عليه التغاضي

ماج من عزمه الكفاح وريا ... وصحا الفجر في العيون المراض

وسرت في النفوس نشوة عـــز واشمخرت على صدى الانتفاض

قـام مـن أجـل أمـة منحتـــه حبـها مخلصـاً مـليء الوفـاض

ومشـت خلفـه تفجـر دنيـــا من نضـال شريفـة الأغـــراض

وتميـد الأهـــوال من قبضتيـــه كحجـاز تميـد فـــي الأنـقـاض

إن للمجـد غضبـــة عرفتهـــا في عريـن الأسود كل الأراضي

يتشظى الحـرمـان في راحتيـه صـاغـراً في مذلـة واهتيـاضِ

ويـــذل الشمـــوس بين يديـــه ويلين الحـــرون بـعد انقبـاض

وقد تتابعت الأبيات تشرح ما في صدر الشاعر من أحاسيس وعواطف وأفكار. والبناء الشعري هنا يؤكد مدلولاً قصده الشاعر، وسعى إلى تحقيقه في ذهن القارئ، إنه الاحتفاء بما تحقق على يد الممدوح من العز والمجد والنصر والسؤدد لبني أمته. وهو أمر لا يتحقق لكل من رامه وسعى إليه، بل يكون للأبطال الذين تمنحهم شعوبهم خالص محبتها وتقديرها، حين تجد فيهم من نوازع الخير والعدل والفضيلة ما يتحقق معه الأمن والرخاء والطمأنينة.

إن مجال المعنى في الشعر مجال صعب معقد، ولذلك فإن وفرة التأويلات من مقوماته الأساسية.

وقد احتفل النقاد بقراءة النصوص الشعرية احتفالاً كبيراً. وكلما تعدد القراءات وتنوعت، زاد ذلك في إثراء العمل الأدبي. ذلك أن تصور المعنى يحتاج إلى تصور سبل استنباطة، وإلى معرفة الأسس والقواعد التي بنيت عليها المعاني، والعلاقات التي تربطها داخل النص.

لقد أدرك المتقدمون من النقاد والبلاغيين العرب أنّ النص لغة، وربما

وجدنا في كتاب دلائل الإعجاز بصفة خاصة ما يدفعنا إلى القول بأن النص له قدرة على الاحتفاظ بعالمه متماسكاً مستقلاً؛ تتعالق فيه الكلمات بعضها ببعض. فالنص عند عبد القاهر الجرجاني مؤلف من كلمات، ونشاط اللغة ضرب من الإيقاع[١].

والشعر يتمتع بخصب لا ينفد حين يتعالق فيه بناء المعاني ويعتمد بعضها على البعض، ويشتد ارتباط سابق بها بلاحقه، وفي النقد الحديث عكف أقطاب مدرسة النص الأدبي من أمثال ريتشاردز على الاهتمام بلغة النص: فيلافلا شيء في لغة الشعر يمكن أن يفهم فهماً حسناً بمعزل عن تمحيص كلمات اللغة الأساسية التي نتداولها جميعاً خارج ميدان الشعر"[٢].

أي أن من سمات العمل الأدبي القيم عند ريتشاردز أن يشيع في الإنسان رغبة لا تكون على حساب رغبة أخرى، بل ينظم الانفعالات، ويخلق مجالاً أرحب من الإشارة أو المعنى[٣].

وقد رأينا كيف أدرك عبد القاهر الجرجاني ضرورة الاقتراب من طبيعة العمل الأدبي من خلال منهجه اللغوي التحليلي، الذي يعمد إلى ضرورة مراعاة الروابط والعلاقات الجمالية التي تلزم الدارس بأن يظل مرتبطاً بسياق النص، وبعلاقاته اللغوية والمعنوية[٤].

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر، تصحيح السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨م، ص ٦٨ وما بعدها، وينظر: مشكلة المعنى في النقد الأدبي، د. تامر سلوم، مقالة في مجلة علامات في النقد، ج ٢٦، المجلد السابع شعبان ١٤١٨هـ - ديسمبر - ١٩٩٧م، ص ٩٧ - ٩٩، ونظرية المعنى في النقد العربي، د. مصطفى ناصف، ص ٣١ - ٣٤.

(٢) How to read a Page,I.A.Richards,p.13 Routbege,London,١٩٥٧. نقلاً عن مشكلة المعنى في النقد الأدبي ص ٩٦.

(٣) مبادئ النقد الأدبي. أ. ريتشاردز، ترجمة وتقديم الدكتور مصطفى بدوي، مطبعة مصر، القاهرة، ص ١٤٨ وما بعدها. وينظر مشكلة المعنى في النقد الأدبي ص ٩٥ - ٩٧.

(٤) قضايا النقد الأدبي، محمد زكي العشماوي، ص ٣٠٦، وانظر دلائل الإعجاز، لعبد القاهر، طبعة محمد رشيد رضا، ص ١٥.

اقرأ الأبيات التالية:

أي سحر على ثغور الأقاحـــي صنعته الصحراء عبر البطاح

وغصون العَرار، داعبها الطـل فمـالت علـى ذراع الصبـاح

تلثم الشيح والخـزامى وتـلقى خصر قيصومه بغير وشـــاح

والزهور الحسان في الرمل تزهو كاللآلي على صدور المـلاح

ان للبيـد فتنـة لا تجـارى وجمالاً يعـم كـل النواحـي

وحناناً يفيض طهـرا وحلمـا وصفـاء يبيض بالارتيـاح

وسماحـاً ونجـدة واقتـداراً واباء وحنكـة في الكـفـاح

ووضوحـاً وعـزة وامتثـالاً لنداء الوجـدان عند الجماح

كان عبد العزيز ذاك، وأربـى فهو منها كالشمس رأد الأضاحي

منحته الصحراء جل عطاهـا وأبوه الرحيـم سـر النجـاح

تأمل التساؤل الوارد في البيت الأول وقد قصد به التعجب وإثارة الدهشة:

أي سحر على ثغور الأقاحي صنعته الصحراء عبر البطاح

وتأمل التقديم والتأخير في بعض أجزاء البيت التالي وقد أتي محقِّقاً لكلمة سيبويه: فيلاإنما يقدمون الذي بيانه أهم وهم بشأنه أعنيلا.

يقول:

إن للبيـد فتنـة لا تجـارى وجمالاً يعـم كـل النواحـي

ثم انظر إلى أدوات الربط الواردة في النص نفسه، وكيف ربطت أوائل

المعاني بأواخرها. ثم كيف تعادل هذا وتوازن مع الاستئناف الذي بنيت عليه أكثر الجمل، فأفاد بناء المعاني والعلاقات اللغوية والجمالية القائمة بينها مزيداً من الاستقلال، والتميُّز. وأصبحت كل جملة تمثل حلقة قائمة بنفسها ترتبط بما قبلها وما بعدها في السياق الذي وردت فيه بما تحقق لها من تقارب في عدد الكلمات، وتزاوج وتشابه في النغمات.

تأمل تلك الجمل والكلمات التي بنيت على العطف بالواو، مثل: "وجمالاً... وحناناً... وصفاءً... وسماحاً... ونجدةً... واقتداراً... وإباءً... وحنكة... ووضوحاً... وعزةلالا، وقد اتكأ الشاعر في بنائها على أسلوب التنكير وقد كثر التنكير في الصفات.

والغرض البلاغي من مجيء التنكير في الصفات هو إفادة العموم، وإعطاء المتلقي المزيد من السَّعة والعمق؛ فتذهب نفسه في تصور المعنى إلى غاية أبعد، وسعة أرحب.

ولاشك أن المتتبع لصورة البطل في هذه المقطوعة يسترعي انتباهه، بجانب كثرة أساليب التنكير، وسائل التعريف بالإضافة، من مثل: فيلاثغور الأقاحي... عبر البطاح... غصون العَرار...ذراع الصباح... خصر قيصومة... صدور الملاح... نداء الوجدان... رأد الأضاحي... سر النجاح...".

كما أن مجيء وسائل التعريف بالإضافة على تلك الهيئة في أعجاز الأبيات، أعان في تحقيق القافية الحائية المكسورة في لغة موسيقية، تتظافر فيها عناصر الطبيعة للتعبير عن صورة البطل، وابتهاج الصحراء بعودته وقدومه.

تأمل بلاغة التَّصوير في الصور التشخيصية التي جعلت من الجمادات

كائنات حية، وأضفت عليها مشاعر الإنسانية، وأمدتها بروح الحركة والحياة والحيوية في قوله:"وغصون العَرار، داعبها الطّلّ، فمالت على ذراع الصباح".

فالعَرار شجر طيب الرائحة يكثر نبته في نجد، هو شجر صحراوي، فهو من خلق الصحراء، وكثيراً ما نبت المجد في واحات الصحراء.

قال الشاعر عمر أبو ريشة، مخاطباً الرياض:

ياعروس الصحراء ما نبت المجد على غير راحة الصحـــراء

وتأمل بلاغة التشبيه في قوله:

والزهور الحسان في الرَّمل تزهو كاللآليء على صدور المـلاح

وكيف جمع فيه بين تشبيهين، الأول منهما تشبيه خفي، حين شبه كثبان الرمل بصدور العذارى، والثاني: جلي، وهو تشبيه هذه الزهور المتفتحة تحت أشعة الشمس بتلك الجواهر المتلألئة على صدور الملاح، بجامع الضياء والبهاء والجمال في كلٍّ.

وهذا تشبيه تمثيلي في غاية الروعة والحسن؛ لما جمع فيه من العناصر التي لا يمكن أن تتحقق إلا في مثل هذه الصورة الحيَّة النّابضة بمشاعر الحياة.

لقد زاد التشبيه والاستعارة في توضيح المعنى، وربط الجمل وعلاقاتها في سياق النص.

ألا ترى أن النَّظير في المقطوعة الشعرية قد ضم إلى نظيره!؟.

فإن قيل: فما علاقة ذلك كله بالتعبير عن شخصية البطل وتصوير ملامح شخصيته؟

قلنا: المجد نبت الصحراء، إذ فيها النقاء، والصفاء، والسماحة، والحلم،

والنجدة، فهي تصنع الأبطال وتزكي الشعور بالعزة، والكفاح، والحنكة ولذلك فقد ربط الشاعر بين نبات الشيح والعرار وغير ذلك من خلق الصحراء وسمات أهلها وبين ما تحقق لعبدالعزيز من حنكة، ودهاء، وشجاعة، ومنعة وإباء، وسماح، وتعقل، ونجدة، وجرأة، ورحمة...

يقول:

كان عبد العزيز ذاك، وأربى ... فهو منها كالشمس رأد الأضاحي

منحته الصحراء جلَّ عطاها ... وأبوه الرَّحيم سر النجاح

البطل إمام، والإمامة قيادة دينية:

لم يكن تطلب عبد العزيز للحكم لمجرد السلطة في حد ذاتها، بل كان البناء الديني هو الأساس. ومعلوم أن لكل بناء أساساً. ولابد لكل حضارة وثقافة وعمران وتمدن في فلسفة تقوم عليها أواصره، وتعتمد عليها أركانه. وأساس البناء هو التوحيد، ونشر العدل والإخاء والفضيلة، وسماحة الإسلام وشريعته بين بني أمته.

ولذلك فإن سعادة نجد وابتهاجها، والتقاءها بالحجاز، والأحساء، ونجران وعسير، وغيرها من مناطق المملكة العربية السعودية شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً، إنما يعود لما بين هذه المناطق من "شم السجايا، واتحاد الغايات" في التطلع إلى معالي الأمور.

أمة عريقة في التحام أنسابها، وتوحد منهجها وأهدافها ومقاصدها. هذا التوحد والتوافق احتضنه قلب هذا البطل؛ بما أُودِعَه من معاني الوفاء والحب والإخلاص، فأفضى ذلك كله إلى قلوب متآلفة، مخلصة؛ تسانده في البناء

والتطلع إلى عنان السماء، رافعة راية التوحيد، ممعنةً في الإباء، مشمخرّةً عزيزة في العلاء، يقودها البطل بحلمه، وعلمه وحنكته، وإخلاصه، وتعقله، وبره. فتم بذلك البناء، وجعل العلم نبراساً وهادياً ومرشداً وقاعدة للانطلاق والإبداع.

يقول:

سعدت نجد في فضول الرخاء ... والتقت بالحجاز والأحساء

وبنجران أختها وعسير ... كلقاء الأنداء بالأشذاء

وطن وحدته شم السجايا ... واتحاد الغايات في العلياء

والتحام الأنساب وهو رباط ... محكم نسجه عريق الدماء

زاده الدين قوة وحياة ... قلب عبد العزيز معنى الوفاء

حسب عبد العزيز مجداً وفخراً ... ضمها في تعاطف وإخاء

قادها للعلي فألقت إليه ... بمقاليدها بكل سخاء

منحته الاخلاص صرفا وسارت ... خلفه تبتغي عنان السماء

تخذت منه رمزها في المعالي ... وأحاطته بالعيون الوضاء

وأحلته قلبها وهي تتلو ... سور الحمد والرضا والثناء

إن تفتش عليه يوماً تجده ... في سويدائها وفي الأحناء

أمة تكره الجحود وتنفي ... من حماها حثالة اللؤماء

رفعت راية العلى من قديم ... بيديها وأمعنت في الإباء

ثم سارت وحين كلت خطاها ... ركزتها على ذرى الجوزاء

كف عبد العزيز حتى استقرت ... واشمخرت عزيزة في العلاء

وإذا تأملت الأبيات السابقة، فإنك لا ريب تجد الشاعر قد أجاد في التعبير عن فضائل الممدوح، فأشار إلى نخوته وحميته الإسلامية والعربية، وألمح إلى مكارم خلقه ومروءته والتزامه بشريعة التوحيد منهجاً وتطبيقاً. ثم ألا يذكرك ذلك بما ورد في شعر العربية من صياغة لفضائل من يرون فيهم ما أشرنا إليه هنا من صفات؟.

يقول ابن قيس الرقيات يمدح مصعباً[1]:

إنما مصعب شهاب من اللـــه ... تجلت عن وجهه الظلمـــاء

ملكه مـلك قـوة ليس فيـــه ... جبـــروت ولا بـــه كبريـــاء

يتقي الله في الأمور وقـدأفـــ ... ـلح من كـان همُّه الاتقـــاء

وقال الفرزدق يمدح هشام بن عبد الملك[2]:

يداك يدٌ ربيـــع الناس فيهـــا ... وفي الأخرى الشهور من الحرام

فإن الناس لولا أنـــت كانـــوا ... حصى خرزٍ تساقطُ من نظـــام

وبشرت السمـــاء الأرض لمّـــا ... تحدثنا بإقبـــال الإمـــام

إلى أن يقول:

رأيتك قد ملأت الأرض عـدلاً ... وضوءاً، وهي مُلبَسةُ الظـــلام

رأيت الظلم لما قمت جـــذّت ... عُراه بشفرتـــيْ ذكـر هُـــذام

---

(١) ديوانه، بتحقيق محمد يوسف نجم، بيروت، دار بيروت، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م، ص ٩١ - ٩٢.

(٢) شرح ديوان الفرزدق، تحقيق عبد الله الصاوي، القاهرة، مطبعة الصاوي، د.ت ٢/٨٣٥ - ٨٤٠.

وقول أبي الطيب المتنبي في ممدوحه[1]:

دعاني إليك العلم والحلم والحجا وهذا الكلام النظم والنائل النثر

وما قلت من شعر تكاد بيوتـه إذا كتبت يبيض نورها الحبـر

كأن المعاني في فصاحة لفظهـا نجوم الثريّا، أو خلائقك الزُّهـر

وإذا كانت غرائب الممدوح عند المتنبي مما يكسو الشعر "قدراً من الحسن والطلاوة"[2]، فإن فضائل الممدوح عند محمد العيد الخطراوي تتجاوز ذلك، في التعبير عن المعنى بلغة سهلة طيعة، إلى إيضاح أن عفو الممدوح وحلمه شمل الكائن الحي والجماد على حد سواء، لدرجة أن السيف في غمده نسي الغرض الذي من أجله صنع.

يقول:

وشملت الجميع بالعفو حتى جهل السيف نفسه في القراب

إلى أن يقول:

تمنح الأمن والسلام وتُحيي كامن المكرمات في الألباب

ألا ترى أن صورة "البطل" هنا مستقاة من صورة الغيث الذي به تحيا الأرض؟ انظر كيف استعارها هنا لإحياء مكارم الأخلاق وإذكائها في عقول الرجال!.

---

(١) أبو الطيب المتنبي : ديوانه ٢ / ١٨ بشرح أبي البقاء العكبري المسمى (التبيان في شرح الديوان) ضبطه وصححه: مصطفى السقا وآخرون، دارالمعرفة للطباعة والنشر ، بيروت، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٨م.

(٢) ينظر « حديث المتنبي عن شعره شعراً » د . عالي سرحان القرشي ، مقال في مجلة جامعة أم القرى للبحوث العلمية المحكمة ، السنة العاشرة، العدد ١٦، اللغة العربية (١)، عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص ١٤٩ .

ثم تأمل كيف يصور الشاعر بعد هذا البيت انتصار البطل في صورة هي من غرائب التصوير؛ فالنصر عند البطل ليس من وسائل البطش والانتقام، بل هو ما يقول:

لم تر النَّصر فرصةً لانتقـــام بـل لقاء الأحبـاب للأحبـاب

ألا ترى أن الشعر: "صياغة وافتنان في تصاريف الكلام، وإدارة اللغة على وجه يُخرج ثراءها، وصورها، وألحانها، وشجوها، وحين يتجه الشاعر إلى ذلك يكون قد سلك طريقه، ومضى على مذهبه، فإذا كان هناك تشبيه فهو التشبيه الخاص به، وإذا كان هناك مجاز فهو المجاز المغموس في لونه، وطعمه، وريحه... وهكذ"(١).

"البطل" مؤسس لتنمية حضارية وثقافية:

لاشك أن الإضمامة الشعرية التي بين أيدينا الآن قد تضمنت إشاراتٍ ورموزاً أخرى، سعى الشاعر إلى التَّعبير عنها في عالم النص.

ولما كانت البطولة تعني العطاء والوفاء والمروءة والحكمة، فإن من غرائبها وفضائلها ومستلزماتها أن تحقق النماء المستمر المتواصل؛ حين ينهج الأشبال سبل الأسود، وتشق الأجيال الطرق إلى النماء والمحبة والازدهار والخير، والعدل، والفضيلة عبر الأزمان المتتابعة.

لقد سار أبناء الملك عبد العزيز - البطل المشار إليه هنا - وفق ما أبانه لهم والدهم رحمه الله -، فعملوا على الأخذ بأيدي شعبهم وأمتهم نحو التَّقدم والرُّقي الحضاري، وسارت سبل التنمية في مسالكها الصحيحية، لاعلى

---

(١) دراسة في البلاغة والشعر، د. محمد محمد أبو موسى، ٢٤٤.

المستوى الحضاري والعمراني فحسب، بل على مستوى الإنسان، والعناية به أيما عناية. فالعلم والثقافة هما ركائز بناء الإنسان. وليس هناك من بناء دون القضاء على الجهل الذي هو أداة تدمير الشعوب.

يقول الشاعر في قصيدته السينية:

عاد مجد الدواة والقرطاس واختفى الجهل من حياة الناس

فمجد العلم يعود من جديد إلى حياة الناس، وعودته تمثل اختفاء الجهل وتدميره والقضاء على عناصره ومسبباته.

وهنا يصور الشاعر أن نشر العلم الذي بموجبه يقضى على الجهل، قد جاء كسحائب الفضل، تترى، من أيادي البطل المؤسس لهذا الكيان الحضاري.

وقد جاء التشبيه في قوله: فيلامن أياديك كالطبيب الآسيلالا موضحا للمعنى الذي قصده الشاعر. فبعد أن انتشر الجهل وعمت الخرافات ربوع البلاد، وأصبحت كالمرض العضال الذي ينخر جسد الأمة، جاءت جهود البطل في نشر العلم وقمع وسائل الجهل،... تماماً كقدوم سحائب الفضل، وعلاج الطبيب....

وقد تتالت الأبيات تشرح ما للعلم من أثر بناء في حياة الشعوب، وهي أبيات حسنة، وفيها إشارة إلى ما يتميز به البطل الممدوح من طموح.

يقول:

أي شيءٍ كالعلم ينعش شعباً ظل رغم الأيام صعب المراس

فانبرى يسبق السنين ويبني صرح أمجاده قوى الأساس

وهو في الجامعات أبدى انطلاقاً في سماء الإبداع والاقتباس

بطموح مجنح ليس يرضى دون فيض من العلى وانبجاس

جعل العلم هادياً وإماماً يحتمي فيه من لظى الارتكاس

ورنا للحياة حراً طليقاً يتهادى على دروس الحماس

سدَّد الله خطوه فهو ماض خلف عبد العزيز في أعراس

وهنا جاء الشعر في هذا الموقف يحلل، ويصف ويفصل، ويلم بطموحات الشعوب تحت قيادة أبطالها، وزعمائها، وحكامها، وقادتها.

ولحديث الشاعر عن أمته أسلوب خاص، ورنَّة ذات دلالات عميقة، حين يتحدث عن أمجادها، وطموحاتها، ومسيرتها الحضارية، وله معرفة بتاريخها وتصور لهذا التاريخ، وكذلك له إدراك وإحساس بنموها وتطورها ورقيها.

ورغم أن الشاعر يفتقر في تصويره لبعض المواقف، إلى تركيز المعاني في ألفاظٍ موجزة بليغة، إلا أنك لا تعدم أن ترى في كلماته ما يوحي إلى التركيز على معاني المجد، والعزَّةِ، والشموخ، والبهاء، والجلال، والتعقل، والأنفة.... الخ.

وقد ذكر أبوحيان أن للكلام زهواً كزهو الملوك، وخفقاً كخفق البرق[1].

وأشير في النهاية إلى مسألة لا تحتاج في إدراكها إلى فضل نظر، وهي خلل وزن بعض الأبيات، كقوله:

كم قطعنا الجهل عزلاً ولعقنا مرارة الانتكاس

كما أن هناك من الخلل في ترتيب الأبيات مالا يحتاج إلى إشارة

---

(١) الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص ٩، وينظر: القوس العذراء وقراءة التراث، د. محمد محمد أبوموسى، ص ٤٠ - ٤١.

وتوضيح، وكذلك فقد ورد في الإضمامة من الكلمات ما يحتاج إلى إعادة صياغة... إذ قد ورد قلقاً في موضعه ولم يخدم الهدف الذي من أجله قام بناء القصيدة وهيكلها. وليس بوسعنا في هذه العجالة أن نتطرق لكل ذلك بالتفصيل.

وخلاصة القول، فقد سعت هذه الورقة إلى الكشف عن صورة فيلالبطللالا من خلال الإمساك بلغة النص، بغية الوصول إلى منابع الجمال في تصوير شخصية وملامح ذلك البطل المغوار، وكانت لغة النص هي المحور الأساسي لهذه الدراسة. وهو أمر في غاية الأهمية لخدمة البلاغة وعلومها، ولتقريب النص إلى ذوق القارئ والأخذ بيده إلى استشراف مواطن الإبداع واستظهار المعاني التي تتظافر، ويأخذ بعضها برقاب بعض في تصوير ما قصد إليه الشاعر في تجربتيه الشعرية والشعورية.

أهم مراجع البحث:

- أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق هـ. ريني، ١٩٨٣م، الطبعة الثالثة، دار المسيرة، بيروت.
- الأسس الجمالية: د. عز الدين إسماعيل، ١٩٥٥م، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، مصر.
- "أمجاد الرياض": إضمامة شعرية في حياة المغفور له جلالة الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود، لمحمد العبد الخطراوي، نشرت ضمن بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين، جامعة الملك عبد العزيز، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ج١، ص ص ٣٠٩ - ٣٤٨.
- التلخيص في علوم البلاغة: القزويني (جلال الدين محمد بن عبد الرحمن) شرح عبد الرحمن البرقوقي. دار الكتاب العربي، بيروت.
- "حديث المتنبي عن شعره شعراً" ، د. عالي سرحان القرشي، مقال في مجلة جامعة أم القرى للبحوث العلمية المحكمة، السنة العاشرة، العدد ١٦، اللغة العربية (١)، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- الحذف والتقديم والتأخير في ديوان النابغة الذبياني، إبتسام أحمد حمدان، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.
- دراسة في البلاغة والشعر، د. محمد محمد أبوموسى، مكتبة وهبة، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تصحيح السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، ١٩٧٨م، بيروت، وطبعة أخرى بقراءة محمود محمد شاكر، ط ٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

- ديوان ابن قيس الرقيات، بتحقيق محمد يوسف نجم، بيروت، دار بيروت، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م.
- ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري المسمى (التبيان في شرح الديوان) ضبطه وصححه: مصطفى السقا وآخرون، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٨م.
- شرح ديوان الفرزدق، تحقيق عبد الله الصاوي، القاهرة، مطبعة الصاوي، د.ت.
- قضايا النقد الأدبي، محمد زكي العشماوي، ١٩٧٩م، دار النهضة العربية، بيروت.
- القوس العذراء وقراءة التراث، د. محمد محمد أبوموسى، مكتبة وهبة، القاهرة.
- "مشكلة المعنى في النقد الأدبي"، تامر سلوم - مقال في مجلة علامات في النقد، ج٢٦، المجلد السابع، شعبان ١٤١٨هـ - ديسمبر /١٩٩٧م، ص ٩٧ - ٩٩.
- مشكلة المعنى في النقد الحديث: د. مصطفى ناصف، مكتبة الشباب، القاهرة.
- مفتاح العلوم: يوسف بن أبي بكر السكاكي، ضبط نعيم زرزور، ١٩٨٣م، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت.
- مناهج بلاغية: د. أحمد مطلوب، ١٩٧٣م، الطبعة الأولى، نشر وكالة المطبوعات، الكويت.

- النص الشعري ومشكلات التفسير، د. عاطف جودة نصر، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٩م.
- نظرية اللغة والجمال في النقد العربي: د. تامر سلوم، ١٩٨٣م، الطبعة الأولى، دار الحوار، اللاذقية.
- نظرية المعنى في النقد العربي د. مصطفى ناصف، ١٩٨١م. الطبعة الثانية، دار الأندلس، بيروت.
- النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن) علي بن عيسى الرماني، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر.
- How To read a Page, I.A. Richards, Routledge, London, ١٩٥٧